أصوات الجدران

هنا تبدأ الحكايات من بين جدران ضيّقة، ومن زوايا يغمرها الغبار والرطوبة، ومن امتحانات قاسية لا تحتمل الفشل. بين زنزانةٍ موصدة ونفقٍ خانق وقاعة امتحانٍ تتحوّل إلى محكمة مصير، تتردّد أصوات البشر وهم يحاولون أن يلتقطوا أنفاسهم في وجه العجز والجوع والخذلان. هذه الأصوات قد تبدو هامسة، لكنها تحمل ثقل ما لا يُقال، وتفضح ما يُكتم خلف الأبواب الموصدة.

نَفَق أخير

غاصت أظافر "فضل" في جدار الطين مرة بعد مرة، كمن يستجدي الأرض أن تمنحه شقًّا صغيرًا يطلّ منه على الحياة. لكن الجدار ظلّ قاسيًا، يردّ محاولاته بحفنة من الطين العالق بين أنامله المرتعشة. كان الظلام كثيفًا كأنه مادة سائلة، يغمر عينيه ويخنق حواسه. لم يعد هناك بصر، كل ما بقي له هو اللمس.

المكان لم يتسع إلا بالكاد لجسده: ثلاثة أمتار طولًا، متر واحد عرضًا وارتفاعًا، أنبوب رطب التفّ حوله ككفن حيّ. الرطوبة تسللت إلى صدره، والعطن اخترق أنفه حتى صار كل شهيق جرحًا داخليًا. أربع ساعات تمطّطت في داخله كأربعين عامًا. الزمن فقد معناه، ولم يبق سوى لهاث ثقيل يزداد خشونة، يخبره أن الأكسجين يتسرب من رئتيه أكثر مما يدخل إليها. عرق بارد سال من جبينه والتصق بالتراب، وأصابع يديه صارت أقرب إلى مخالب مقطوعة.

كان يسمع داخله أكثر مما يسمع من حوله: دقات قلبه تضرب صدره كالمطرقة، وأنفاسه تتحشرج كالصفير. أما الخارج فلا شيء... لا حركة، لا أصوات، فقط صمت مطبق يساوي بين الأحياء والأموات. في تلك اللحظة، أدرك أن الحفرة ليست مجرد نفق، بل قبر مفتوح ينتظر لحظة إغلاقه.

ارتدّت ذاكرته فجأة إلى سنوات مضت، إلى شاب آخر كان يظن نفسه يومًا ما مهندسًا واعدًا.

قبل سنوات، كان "فضل" يحمل شهادته الجامعية في الهندسة المدنية كما لو كانت جوازًا للكرامة، لكن الواقع كان أبرع في السخرية. عشرات الطلبات، مقابلات عقيمة، ووعود لم تثمر شيئًا. البطالة صارت عنوانه، والفقر ظلّه الدائم.

كان يستيقظ كل صباح ليجد نفسه أثقل من الليلة السابقة: لا عمل، لا أفق، ولا حتى رغبة في مواجهة الناس. أصدقاؤه ابتعدوا واحدًا تلو الآخر، بعضهم تزوّج، بعضهم سافر، وبعضهم صار يسخر من حاله بكلمات جارحة. أما هو فبقي عالقًا بين النوم نهارًا والسهر ليلاً، يقتل الوقت كمن يدفن نفسه ببطء.

الجامعة؟ صارت مجرد ذكرى. خمس سنوات من الكدّ انتهت بورقة لا تسدّ جوعًا ولا تفتح بابًا. حتى كرامة الشهادة العلمية صارت عبئًا: ورقة تُذكّره كل يوم أنه ضيّع شبابه في وهم.

كان وحدها الأم من تفهم، أو بالأحرى من تتظاهر بالفهم. تقطّع من مصروف البيت الشحيح بعض الشواكل وتضعها في يده بخجلٍ عاطفي، كأنها تقول له :خذ، ما زلتَ ابني، حتى وإن كنتَ عاطلاً .في تلك اللحظات، كان يشعر أن قلبه يتهشم أكثر من جيوبه.

كم مرة خرج من البيت هاربًا من عينيها الدامعتين؟ كم ليلة قضاها على شاطئ البحر يراقب الموج كأن فيه الجواب؟ كم يومًا نام في البساتين طاويًا بطنه، يرفض أن يعود بخفيّ الخيبة؟

الكرامة، تلك الكلمة التي قتلت روحه أكثر مما أحيتها. لم يعد يرى نفسه سوى عبء على عائلة فقيرة منذ الأزل. أبوان طاعنان في السنّ، بيت بالكاد يصمد، وجيب فارغ لا يُسكت جوعًا ولا يفتح باب مستقبل.

ثم جاء اليوم الذي انفتحت فيه نافذة غريبة: صديق قديم ظهر فجأة، يتحدث بثقة ويمتلك ثيابًا جديدة وخطبة على وشك أن تكتمل. حين سأله "فضل" عن السر، لم يتردد الصديق :العمل في الأنفاق... هناك المال، وهناك الحياة التي لا تجدها فوق الأرض.

في تلك الليلة، تبِع "فضل" صديقه عبر طرق لا يعرفها. المدينة فوق الأرض بدت هادئة إلى حدّ المكر، بينما كانت الأزقّة التي يسلكانها تتلوّى كأنها تحفظ سرًّا لا تقوله. سيارة قديمة بطلاء باهت توقّفت عند زاوية معتمة، صعدا فيها دقائق قليلة بلا كلام، ثم نزلا قرب بناية متوسطة لا يلفت النظر إليها شيء.

دخلَا صامتين. في الداخل، رجل أربعيني بوجهٍ حادّ المعالم، عيناه يقظتان كحارسٍ لا ينام. قدّمه الصديق بكلمات مقتضبة" :هذا أبو أسامة... صاحب النفق ".مدّ أبو أسامة يده بثبات، راقب "فضل" من أعلى إلى أسفل كما لو كان يقيس قدرته على الاحتمال. قال له بصوت منخفض لكنه حاسم:

" ـــالشغل تحت الأرض مش بهرج. بدّو صدر واسع، وأعصاب باردة، ولسان قصير. إلّك على كل يوم، إذا مشي الحال، مية دولار. وإذا تعلّمت بسرعة... بتزيد".

هزّ "فضل" رأسه. كانت الكلمات كافية لفتح نافذة هواء في صدره. مئة دولار في اليوم؟ هذا وحده كان كفيلًا بأن يعيد إليه صورًا مؤجلة: شقة

صغيرة، أثاث متواضع، خاتم في إصبع فتاة لا يعرفها بعد ولكن سيتعرف إليها، وأمّ تبتسم أخيرًا بلا دموع.

منذ الليلة الأولى، عرف أن تحت الأرض حياة موازية. أنفاق متشابكة كشبكة عروق، قلوب رجال يخفق فيها الخوف والأمل معًا، وأدوات تُدفع وتُسحب وتدور كأنها على إيقاعٍ واحد. كان الفريق ستة رجال، كل واحد منهم يحمل قصة مكتومة؛ لكن الوجوه، مع العرق والطين، تتشابه في النهاية" .فضل "صار بينهم خلال أيام: يضحكون معًا في الاستراحات القصيرة، يتبادلون شطائر جافة وكؤوس شاي مُرّ، ويؤشّرون لبعضهم بإيماءات مفهومة أكثر من الكلمات.

الليل صار وقت العمل. سبع ساعات، وأحيانًا أكثر، يقضونها في الحفر وإخلاء الردم ودفع ناقلات الطين على سكّتها المعدنية. وفي الصباح، يصعد "فضل" إلى سطح العالم شابًّا آخر: حمّام ماء ساخن، قميص نظيف، وهدوء على وجهه لم يعرفه منذ زمن. لم يسأله أحد عن سرّ التحوّل، وهو لم يعطِ أحدًا فرصة للسؤال .الوقت بين البيت والعمل صار محسوبًا :قبلة على جبين الأم، نوم ثقيل حتى الظهيرة، زيارة سريعة لصديق قديم، ثم عودة إلى الممرات المعتمة حيث يواصلون حفر الطريق نحو "العين" — رأس النفق على الطرف الآخر.

الأم ترددت في البداية، ثم استسلمت لدعائه ووعوده. كانت تُخفي قلقًا لا يهدأ، لكنّها رأت التغيير بعيونها: الثياب الجديدة، الطعام الذي صار أطيب، وإحساسٌ بأن القهر الذي التصق بالعائلة بدأ يخفّ. كانت كل صباح، وهو ينصرف، ترفع كفّيها بصمت. وكان، كل صباح، يقبّل يدها وجبينها ويعدها بأنه سيعود.

الأجر اليومي — حين يسير كل شيء كما ينبغي — بلغ مئة دولار بالفعل. رقمٌ صغير في العالم الكبير، لكنه في عالم "فضل" كان بابًا واسعًا. عاد يفكّر بصوتٍ عالٍ" :شقة صغيرة... بعدين خطبة... بعدين بيت ".لم يكن طمّاعًا. كان يريد نصيبه العادي من الحياة، لا أكثر.

مرّت أشهر على هذا الإيقاع :تحت الأرض رجلٌ يعمل، وفوقها رجلٌ يحاول أن يبدأ .شيئًا فشيئًا، صار يعرف الأنفاق كما يعرف خطوط كفّه. رائحة الطين الرطب لم تعد تؤذيه، بل صار يميّز درجاتها: متى تكون الأرض مثقلةً بالماء، ومتى تكون متماسكة، ومتى ينبغي أن يتوقفوا. تعلّم أن الإنذار أحيانًا ليس صوتًا ولا ضوءًا، بل ذبذبة خفيفة في الجدار تمر إلى كفّه حين يضعها على التراب.

في إحدى الليالي، وبينما هم يعملون بانتظام، حدث ما بدا أول الأمر تفصيلًا لا يُرى :ناقلٌ صغير للطين توقّف عند التفافٍ ضيّق .المشكلة تحدث أحيانًا، ويُحلّها أحدهم في دقائق، لكن تلك الليلة تراكمت الصدف الصغيرة: الحرفيّ الأصلي خرج لقضاء حاجة، فحلّ "فضل" مكانه على رأس النفق، والنداء عبر اللاسلكي جاء سريعًا:

" ـــفي عائق على السكة عند الكوع. مين أقرب؟"

ردّ "فضل:"

" ـــأنا... خمس أمتار وبوصل".

لم يفكّر طويلًا. أمسك الكشاف واندفع ناحية الالتفاف. كان يعرف تلك المنطقة جيدًا :سقفٌ منخفض قليلًا، طينٌ أثقل من المعتاد، وأنبوب التهوية يضخ الهواء بانتظام .وضع كتفه تحت الناقلة ودفع. تحرّكت سنتيمترين، ثم توقفت.